

التفكيكية: المبادئ والمرتكزات

Deconstruction "Pillars and Principles"

بكري هشام*

المركز الجامعي: صالحى أحمد-النعام-الجزائر

تاريخ الوصول: 2021-08-22 تاريخ القبول: 2022-02-28 تاريخ النشر: 2022-05-13

ملخص:

تأتي أهمية هذه الدراسة الموسومة ب: التفكيكية "المرتكزات والمبادئ" من حيث كونها تقف عند أهم المفاهيم الفلسفية التي تتكئ عليها الدراسة التفكيكية في تعاملها مع النص، وذلك حينما تحولت من مبحث فلسفي محض إلى مبحث نقدي قائم بذاته، يحاول أن يستثمر في مقولاتها الفكرية. وتوضيحا لمناسبة القول جاء البحث ليجيب عن الإشكالات التالية: كيف استثمر هذا المبحث النقدي في القضايا الفلسفية الكبرى؟ وما هي مقاصد هذه المقاربة في توظيف مفهوماتها الملغزة؟ وإجابة عن هذه الأسئلة، تهدف هذه الدراسة إلى البحث في أهم المبادئ التي تقوم عليها هذه المقاربة، على اعتبار أنها مبادئ مبهمّة، تحتاج إلى التدليل، والتفسير من أجل فهمها فهما عميقا، وبالتالي إسقاطها على المدونة بغية ممارسة التقويض، والتفكيك بعيدا عن فكرة التمرکز، ومركزية اللغة.

الكلمات المفتاحية: التفكيكية، الحضور، الغياب، الكتابة، التأجيل

Abstract: The importance of this study tagged with: Deconstruction "Pillars and Principles" in terms of being at the most important philosophical concepts on which the deconstructive study relies in its dealing with the text, and that when it turned from a purely philosophical topic to a critical topic of its own trying to invest in its statements intellectual. And to clarify the occasion, the research came to answer the following problems: How did this critical study invest in major philosophical issues? What are the purposes of this approach in employing its enigmatic concepts?

In answer to these question, this study aims to research the most important principles on which this approach is based, considering that they are vague principles that need to be demonstrated and interpreted in order to understand them in depth and thus drop them on the code in order to practice undermining and dismantling away from the idea of concentration. And the centrality of language.

Keywords: Deconstruction, Presence, Absence, Writing, Postponing

1. مقدمة:

لقد شكلت التفكيكية منعطفا هاما في تاريخ النقد الغربي المعاصر، بعدما حملت على عاتقها أبعادا فلسفية شكلت دعامة معرفية هامة في مقارنة النص مقارنة أكاديمية من منظور إيديولوجي نقدي، في سعيها الحثيث إلى "تحرير النص الحي المفتوح من قيد القراءة الأحادية المغلقة"¹. فلقد سعى جاك دريدا وهو يصوغ معالم تفكيكيته بناء نظرة نقدية جديدة تتجاوز القراءة التقليدية التي تتعامل مع اللغة، على أساس أنها مركز الوجود، فتفرض سلطة على العقل بمعانيها المعدة سلفا. ومن هذا المنطلق كان همُّ دريدا نفس هذا التمرکز الذي يعطي صبغة ثابتة، وقيمة راسخة تتأبى على كل قراءة وتأويل.

وفق هذا التحديد راهنت التفكيكية على التأويل الذي لا يتحدد بالمعاني، أو المسميات التي ترتبط بمسمياتها. وإنما تفتح على المطلق واللامعقول، الذي يسعى إلى التقويض والتدمير، من أجل خلخلة البنى والتشكيك في اليقينيات. لذلك تعتبر التفكيكية "قراءة مزدوجة تسعى إلى دراسة النص دراسة تقليدية أولا بإثبات معانيه، ثم تسعى إلى تقويض ما تصل إليه من نتائج في قراءة معاكسة تعتمد على ما ينطوي عليه النص من معان تتناقض مع ما يصرح به. تهدف القراءة التقويضية إلى إيجاد شرح بين ما يصرح به النص وما يخفيه (بين ما يقوله النص صراحة وبين ما يقوله من غير تصريح)"².

وهكذا تتحدد مفهومات التفكيكية على الاختلاف، وتشعب المعاني، وعدم التمرکز الذي يغذي التشييت والتشظي، الأمر الذي يساعد على استحضار الغائب، واكتشاف المندس، فتكتسب العناصر المطمورة هوية جديدة.

وعلى هذا الأساس تبلورت مبادئ هذه المنظومة النقدية في خضم المعطيات التي ساهمت في تكوين جاك دريدا من الناحية الفكرية والنفسية والثقافية. فشخصية الفيلسوف المشتتة والمضطربة بين ديانة الأصل وبلد المنشأ، وجنسية الوطن، وطدت فكره التفكيكي. وهو لا يتوانى بالتصريح والاعتراف بذلك: "أنا يهودي جزائري، يهودي لا، يهودي بالطبع. ولكن هذا كاف لتفسير العسر الذي أتحسسه داخل الثقافة الفرنسية، لست منسجما إذا جاز التعبير، أنا إفريقي شمالي بقدر ما أنا فرنسي..."³.

ومن هذا المنطلق تكشف معطيات التفكيكية بناء على هذا التشظي الذي عاشه فيلسوف التفكيكية. "إنه شخصية مفككة، يصدر عنه فكر تفكيكي. يطبعه الإبهام والتناقض الظاهري والانسجام والتشكيك، والثورة النقدية، واللغة المراوغة.. لذلك لم يكن غريبا أن يلجأ في طفولته إلى الكتابة الشعرية بحثا عن لغة خاصة تترجم نفسيته المفككة وقلقه الفكري المبكر..."⁴.

وبناء على هذا التأسيس قدم دريدا تفكيكيته في ثانيا كتابه (علم الكتابة/ الغراماتولوجيا) سنة 1960 متأثرا في ذلك بفلسفة مارتن هايدجر وكتاباته التي تبنت المصطلح، خاصة في كتابه (الكينونة والزمن)، ناهيك عن نيتشه الذي شكل حلقة مهمة من حلقات التأثير، والتي تركت وقعها الفكري، والفلسفي الذي اتضح معالمه في هذا الفكر النقدي، فضلا عن المقولات الإيديولوجية لجان جاك روسو، والأفكار الفلسفية لهوسرل، هيجل،

وهيدجر ولغويات سوسير، والعلوم النفسية لفرويد التي قدمت نتاجا معرفيا ساهم بشكل أو بآخر في تحديد مفهومات التفكيكية، وإسقاطاتها الفلسفية قبل النقدية. فغدت هذه المعارف على اختلاف مشاربها وأصولها المشروع الدريدي من حيث أنه توافق معها في شق علمي وأكاديمي يضمن تعزيز الفكرة، واختلف معها في شق طرح الأبنية القديمة التي ضلت ردحا من الزمن متوارثة من دون أن تضيف شيئا للدرس العلمي، أو على الأقل لا تستجيب للرؤية التي أراد من خلالها دريدا أن يقوض كل الطروحات البالية التي استحوذت على الفكر الغربي.

وعلى هذا الأساس عولت التقويضية، وهي من المسميات الأخرى للتفكيكية على الطروحات الفلسفية التي تنكر الماهية والوجود في تعاملها مع النص، فتحوّلت إلى مبحث نقدي يسعى إلى هدم الثوابت، وزعزعة المسلمات، وقلب المعادلات المركزية رأسا على عقب، وإعادة النظر خاصة في الثنائيات التي اعتمدتها الميتافيزيقا الغربية في فلسفتها وتاريخها الديني والإيديولوجي، ومن بعدها لسانيات دي سوسير، التي أولت عناية خاصة بالحلقة الأولى على حساب الحلقة التي تقابلها، أو الحلقة الثانية التي تأخذ مرتبة أدنى حسب وجهة نظر التاريخ والتاريخانية الأوروبية. وحتى لا ترزح هذه الحركة النقدية بين ذينيك المكونين أعدت عدتها الفكرية، وجيشت آلياتها النقدية حتى تفك وصال عرى هذه الثنائيات التي شكلت حجر أساس تفكير الفلسفة الغربية، من منظور ضيق لا يفتح على الممكن والاختلاف. وذلك "بوجوب البحث عن مفهومات جديدة ونماذج جديدة عن اقتصاد يفلت من نسق هذه المقابلات."⁵ وحتى ينتزع المنظر هذه الأسلبة الضيقة التي تحصر المعنى بلفظه في إطاره الاعتباري، قوض الدلالة القارة، وجعلها منفتحة على كل الممكنات مع التشكيك فيها. وتقديم عنصر الإنكار والرفض، وإلغاء العقل والعقلانية. ومخالفة البديهيات.

ومثلما جاء مصطلح "التفكيك" مضللا بمفهوماته الملوّنة، المبهمة، جاء المنهج، وهو بعيد من أن يكون منهجا باعتراف صاحبه، مربكا وقلقا ولا يستقر على حال واحدة. فلا جرم أن يعتبرها النقاد -إذن- اجتهدا، أو حتى حركة نقدية لا تمت بأي صلة للمدرسة، أو النظرية، أو المنهج كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك آنفا. و" ذلك لعدم قدرته على كتابة مثال عن منهجه، وعلى وصف حدود مجاله."⁶

وعليه تروم التشريحية الدريدية الهدم من أجل الهدم، فهو "تشريح للنصوص من أجل هدم المقولات الثابتة، وتقويض البنى الثنائية، والتشكيك في فعاليتها الفلسفية والإجرائية، بمعنى أن التفكيك البنوي والسميائي هو تفكيك إيجابي ومنهجي، وفعال في قراءة النصوص الفلسفية والأدبية، وطريقة عامة لفهم الخطاب وتفسيره علميا، بينما تفكيك دريدا، في الحقيقة هو تفكيك تقويضي سلبي يقوم على التضاد، والاختلاف، وهدم تلك الثوابت البنوية تشكيكا وفضحا وتعرية لأوهامها الإيديولوجية بالمفهوم السلبي والعدمي للتقويض. ومن ثم، فإن فلسفته في مجال التفكيك قريبة جدا بشكل من الأشكال من فلسفة النفي لدى الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه"⁷.

لقد ظهرت هذه الحركة النقدية في سياق عرفت فيه الساحة الأدبية تقهقر البنوية واضمحلالها. فقامت على أنقاضها اتجاهات إيديولوجية، وتيارات نقدية ثارت عليها، وعلى رؤيتها النقدية الضيقة، والتي لم تستطع أن

تخرج من قوقعة النص أو بالأحرى: داخل-نص. فقدم دريدا نفسه في هذا الوقت على أساس علمي يثور ضد معتزك الحياة الثقافية التي كانت ترزح تحت وطأة اللوغوس، وتمركز العقل الذي لم يقدم بديلا واضحا يتجاوز الهيمنة الفكرية التي تأصلت في العقل الأوروبي.

وضمن هذا المعطى تقوم التفكيكية والتي يرفض صاحبها أن يضعها في خانة المنهج للأسباب التي سبق ذكرها، على مجموعة من الخصائص:

2. العقل واللوغوس: الثورة والثورة المضادة:

لقد سبق كل من نيتشه ومارتن هيدغر، جاك دريدا في طرح فكرة نقد العقل، وتقويض اللوغوس، وهذا يبدو واضحا، جليا في هذا الطرح الذي يقوم على العدم والعدمية. فهذه القراءة صنيعة الفلسفة، والإيديولوجيا، التي جعلتها تكتسب شرعية، ما فتئت تحرض صاحب التفكيك على تحطيم القيود المعرفية، وهدم الأصنام المتعالية. كما صرح بذلك من دون موارد، أو تورية: "تحطيم كل الأصنام، وهي كلمتي المفضلة للتعبير عن المثل".⁸ فلا جرم أن يفرغ القيم من قيمتها كما لم تقدمها الميتافيزيقا، ويعطيها قيما جديدة. فيضرب الزهد مثالا وما ينجر عنها من قيم أخرى في مقتل، ويعلي في مقابل ذلك من قيم الأنانية وتمجيد الذات "إن الأنانية تنتمي إلى جوهر النفس النبيلة، وأقصد بها ذلك الاعتقاد الراسخ بأن كائنا مثلنا يجب أن تخضع له كائنات أخرى وتضحى بأنفسها لأجله".⁹

هذا التأثير يجعل المفكك الأول لا يتقاعس في نقد أفلاطون وأرسطو لاعتمادهما على العقل وجعله أساسا للفلسفة والمعرفة. ومن هنا اشتغل على "تحطيم تلك المركزية المعينة وجوديا بوصفها حضورا غير متناه، جاعلا من هذه المقولة دليلا لنقد مفاهيم التمرکز، وهادفا إلى معاناة نظم المقولات المعتمدة على الحضور وداعيا إلى ضرورة التفكير بعدم وجود مركز، فالمرکز لا يمكن لمسه في شكل الوجود، بل ليس له خاصية مكانية، كما أنه ليس مثبتا موضعيا ووظيفيا، إنه في حقيقة الأمر، نوع من اللامكان، وبغيابه أو تقويضه يتحول كل شيء إلى خطاب، وتذوب الدلالة المركزية أو الأصلية المفترضة أو المتعالية، وينفتح الخطاب على الأفق المستقبل دونما ضوابط مسبقة، وتتحوّل قوة الحضور بفعل نظام الاختلاف إلى غياب الدلالة المتعالية، وإلى تخصيب الدلالة المحتملة".¹⁰

تقوم المقولات التفكيكية على رفض المفهومات التي قامت عليها المدارس العقلية، والخطاب الغربي الذي لا يعدوا إلا أن يكون خطابا هشاً، مشروطاً بمنظومة من العادات والتراث المحكوم بالثبات. ومن هنا انمازت هذه الرؤية بفلسفتها التي تملصت من النموذج والنمذجة، وذلك بتوجهها الصريح نحو خلخلة هذا الخطاب (الخطاب الميتافيزيقي) الذي يتوهم امتلاك الحقيقة. فبراهن على الطعن في هذه "الميتافيزيقا الغربية المبنية على المنطق واللغة والحضور، والتمركز العقلي الذي يشكل معيار الحقيقة، والبداهة واليقين.. وبمقت كل انطواء على تسييد العرق أو الجذر، أو التبجح بالخصوصية المركزية، أو بهيمنة عنصر على آخر. ومن ثم يرفض أسطورة الأصل".¹¹

وفي كنف هذا الطرح تنخرط التقويمية في التنظيرات التي ترفض فكرة التساوق، والانسجام الذي يمنحه الخطاب، وتنحو نحو نزع البنية من النص، وأسلوب المقصدية من القصد، والقصد من المقصدية، لتصل بالقراءة من وجهة هذه النظر إلى مدياتها القصوى في التشتيت الدلالي، على ما ينطوي عليه النص من معاني متناقضة ومتضاربة، فتستأنس بالاختلاف والتعدد، وإخلاء المعنى من سلطة البنى بمفهوم الغراماتولوجيا التي لا تؤمن بوجود أي شيء قبل اللغة، ولا بعدها. وذلك حتى لا يبقى المعنى رهين قبضة النسق المغلق كما تؤمن به البنيوية. ومن هنا راهنت هذه الحركة النقدية ذات المنطلقات الفلسفية على الغياب الذي يتجاوز الصيغ التي من الممكن أن تفرض هيمنة إيديولوجية، وسلطة عقلية من جنس: (الإله، الإنسان، العقل). وبهذا المفهوم "الن يعود النص كيانا متكاملًا، أو مفهومًا يحده كتاب، وهوامش، بل شبكة مختلفة، نسيج من الإشارات التي تشير بصورة لا نهائية إلى أشياء أخرى، غير نفسها، إلى آثار، واختلافات، وهكذا يحتاج النص كل الحدود المعينة له."¹²

ونظير هذه المعطيات يمنح الناقد المفكك إلى البحث في الغياب الذي يحتكم إلى المعاني المجازية، بعيدا عن المعاني المرجعية التي يقدمها النص في بناء السطحية، ليمتلك القارئ حق الولوج من أي مدخل يشاء، ليضيئ زواياه المعتمدة ويبحث في دلالاته المرجئة، ليحيد المقول عن المقصود، ويجرره من تبعية القائل، فتتحرر كل المداليل الممكنة، والالاهائية من عائق المماثلة المحكومة بالاعتباطية السوسيرية الساذجة.

وبناء على ما سبق، تفرد هذه القراءة مساحة مهمة لمفهومي الحضور، والغياب باعتبارهما ركنان أساسيين من أساسات التفكيكية.

3. التأجيل والاختلاف من منظور الحضور والغياب:

يرفض فيلسوف التفكيكية اختزال المعاني في علاقتها الضيقة بين الدال والمدلول. فالبحث عن هذه المعاني _في هذا الإطار_، هو بحث عن الحقيقة، أو رغبة في الوصول إلى مفهوم محدد وثابت، بل ونهائي، وهو ما يعرف بمركزية اللوغوس، أو الوصول إلى المعرفة الحقيقية عن طريق تحديد المفهوم الذي تمتحه علاقة المفردة بمعناها. وهو ما يرفضه القارئ التفكيكي، وذلك لاستحالة حصر المعنى في هذه العلاقة الضيقة. فالمعاني لا يمكن اختزالها في هذا الإطار، لأنها متملصة، وزئبقية، ومتعددة بل وقد تكون مرجئة، متأخرة بفعل ارتباطها بالكلمات الأخرى. فأبي إضافة للفظه سابقة تجعل المعنى مختلفا ومرجئا في انتظار اللاحق. وهكذا الجملة مع الجملة، والنص مع مقولاته، وجمله. وهذا ما يعرفه دريدا بـ **التأجيل**.. وهكذا "تغدو عملية توالد للمعاني مستمرة انطلاقا من اختلافاتها التي تبقى مؤجلة ضمن نظام من الاختلاف. وتظل محكومة بحركة حرة لا تعرف الثبات، والاستقرار، وكل هذا يشحن الدوال ببدائل لا نهائية من المدلولات، الأمر الذي يكشف أن هناك بناء، وهما متواصلين..¹³

إن ما يحدد المعنى في العرف التفكيكي هو **الاختلاف** بالدرجة الأولى. فالمعنى لا يتحدد من المادة اللغوية أو الصوتية التي تشكل كيائها، وإنما يتحدد معناها من اختلافها عن الكلمات الأخرى. فلا يكتسب الرجل معنى الرجولة مثلا إلا من خلال اختلافه عن مفردة امرأة وحيوان، وطاوله.... الخ. وهكذا الأمر مع كل دوال اللغة.

وضمن هذا المعطى " ينبنى الاختلاف على فلسفة الحضور والغياب، فيحضر هذا المعنى، ويغيب ذاك. وبهذا تتناسل الاختلافات وتتعدد المدلولات توالدا وتلاشيا وتفكيكا وتأجيلا وتشتيتا. وهذا يعني كله أن ثمة وحدات تحضر، ووحدات تغيب في الوقت نفسه. ويؤكد هذا انبناء فلسفة التفكيك على فلسفة التقويض، وآلية تشتيت المعاني وبعثرتها.¹⁴ وهكذا تغدو ثنائية التأجيل والاختلاف مهمة في إطار مبدأ الحضور والغياب.

إن الحديث عن الحضور والغياب يقودنا إلى إثارة قضية هي من الأهمية بما كان. من حيث كونها أعادت النظر في الثنائيات التي قامت عليها ماهية الوجود وكيونته، والتي حاولت من خلالها الفلسفة الغربية على امتداد تاريخها أن تعطي مفهوما محددًا لهذه الكينونة، والتي لا تتحدد إلا من خلال حضور الوجود من جهة، والغياب الذي يمثل نقيض الحضور من جهة أخرى. وبناء على هذا التأسيس انخرطت هذه الفلسفة في تفضيل الطرف الأول من هذه الثنائيات على حساب نقيضها في تعسف علمي واضح من وجهة نظر دريدا. فالفلاسفة غالبًا ما يفضلون مثلاً الرجل، والخير، والنور، على حساب المرأة، والشر، والظلام. رجل/امرأة. خير/شر. نور/ظلام. وهذا ما يعتبره المنظر التفكيكي تمركزاً لا جدوى منه وجب فيه إعادة النظر. خاصة وأن الفكر الغربي قام على "ثنائية ضدية عداوية تتأسس عليها ولا توجد إلا بهذه الثنائية، كثنائية العقل/العاطفة، والعقل والجسد...و ما إلى ذلك. وأن هذا الفكر دائماً ما يمنح الامتياز والفوقية للطرف الأول ويلقي بالدونية والثانوية على الطرف الثاني. هذا الانحياز هو ما يسميه دريدا بالتمركز المنطقي¹⁵.

تتحدد قيمة اللفظ حينما يتحرر من حدود الرسم، وينفتح على منظومة الغياب التي تسمح للقارئ بالبحث في مواطن الاختلاف، ف "يستولي على المكتوب، يفرضه ويهتك حيائه، يجوبه، ويثقب أسوار انغلاقه."¹⁶ فالقارئ حينما يأتي بخلفية تفكيكية يقارع ما لم يصرح به المكتوب، وينتظر كل فرصة سانحة ليقبض على المعاني التي تشظت بفعل عملية التقويض المستمر، والفضح اللامنهج، وخلخله الأسس، لتعرية النص من نظام امبريالية الكاتب، وامبريالية النص ذاته، ولغته حتى لا تشكل سلطة فتفرض سلطاتها. ومن هنا يغدو الغياب في هذه الاستراتيجية مهماً، وهو ما يضمن في الأخير استمرار النتاج الأدبي، أو الفني ويمنحه صفة البقاء، وشرعية الوجود الذي لا يكون كذلك، إلا بعد بحث في غياب آخر. وهكذا يتحول النص إلى آلة منتجة من هذا المنظور النقدي الذي يحث على "تدمير كل الدلالات التي تجد مصدرها في دلالة اللوغوس، وتفكيكها، وتدوين روايتها المتعاقبة."¹⁷

تتكشف دلالة الغياب في عملية التأويل، وتنشظى بحثاً عن اللامدرك، في النص الذي لا يقدم إلا لغة محدودة، وموجودة، لا تقدر على أن تضيف شيئاً خارج هذه اللغة، إلا بالتقويض، وخوض تجربة جديدة قوامها الخروج عن الأنماط النسقية، والاعتماد على سيروية من التأويلات التي تحصل جراء التحولات المستقاة من فائض المعنى الذي ما يفتنى يظهر للوجود، حتى يضمحل في ثنايا قراءة متجددة. لنتنظر هي الأخرى دور فنائها، وتقوم

على أنقاضها معاني جديدة. وهكذا دواليك، تدخل المداليل في هذه الدوامة التي تعطل النص، وتجعله يفكك نفسه، بنفسه.

4. الكتابة والصوت:

لقد أولى الدرس الغربي عناية خاصة بالصوت على حساب الكتابة، وهي أيضا تدخل ضمن الثنائيات التي نال فيها الصوت بمعنى الكلام حظه من العناية على حساب نقيضه الكتابة، بمعنى الرسم والذي عمد الفكر الغربي على مدار التاريخ إلى تهميشه. إذ يمثل الصوت: العقل والمنطق والقيمة المشحونة بالحضور. فالكلام قادر على تقديم الحقيقة. والكتابة قاصرة على فعل ذلك. وهذا ما يؤدي إلى تكريس اللوغوس، أو مركزية اللوغوس، أو ما يطلق عليه دريدا بميتافيزيقا الصوت. أي سيادة الكلام على حساب الكتابة، كما توارثتها الفلسفة الغربية. إن الكلام من المنظور الفلسفي يعطي قابلية لإنتاج المعنى، بناء على معطى الحضور الذي يمتح الدلالة عن طريق الحديث المباشر، وإلقاء المعنى في النفس بتوافر الإيماء والتنبيه والإشارة. ومن هنا ينماز الكلام عن الرسم في كونه قادر على حمل المعنى، والبوح به. فلا جرم أن تصبح الكتابة بهذا المفهوم، تابعة لا متبوعة. فهي "تحدد نقاء النسق"¹⁸ وتدمر الحقيقة. ولذلك نحا الفلاسفة نحو ذم الكتابة، واعتبارها شيئا ثانويا وقد عبّر "فلاسفة الإغريق القدامى عن كرههم للكتابة بسبب خشيتهم من قوتها في تدمير الحقيقة الفلسفية التي يرون أنها حقيقة نفسية خالصة وشفافة، ولا يُعبّر عنها إلاّ بالحديث الذاتي أو الحديث المباشر مع الآخرين، ولما كانت الكتابة لا تدعّن لهذا التصور، فهي تجسد الحقيقة بصورة مرئية، إذ ظهر وكأنها تختزلها إلى مرتبة أقل سموّاً مما هي عليه في النفس. وذهب هؤلاء الفلاسفة إلى أنّ تدوين "الحقيقة" بالكتابة هو تدنيس لها. وكان سقراط يرفض رفضاً باتاً أن تدوّن فلسفته، لأن الحقيقة فيها لا يمكن أن يحتويها جلد حيوان أو حجر جامد بدل النفس الزكية الطاهرة"¹⁹، وجاراه في ذلك أفلاطون.

وإذا كانت الكتابة من هذا المنظور الفلسفي تحمل في طياتها بذرة ضعفها، وما هي إلا وسيلة لتمثيل الصوت والكلام، على اعتبار أنها تنفتح على التأويل، مما يؤدي إلى تلاشي المعنى وموته، فإن دريدا من موقعه التفكيكي يناقض هذا الطرح، ويعلي من شأو الكتابة التي تصنع من الأفكار نصا، وخطابا منقوشا يمتح مدلولات لا حصر لها بعيدا عن هيمنة القائل. الأمر الذي يعطي حرية للمتلقى في القراءة، واستخراج المعاني التي لا تتوقف عند حد معين. وهكذا يغدو "الصوت مجرد نسق تتلاشى دواله حال نطقها على عكس الكتابة التي تحافظ على الدوال في سلسلة من الإشارات المادية، والتي يمكن ممارستها حتى أثناء غياب المتكلم. الكتابة مع دريدا ترتكب جريمة قتل المؤلف كأب، فهو يدعوا إلى تهمينها لأنها الوسيلة الأنجع لضمان ترسيم الأثر."²⁰

وبناء على هذه المفاتيح، تصبح الكتابة سابقة على اللغة بخلاف ما أرادته الفلسفة الغربية. وعليه يعتبر دريدا الكتابة أصلية على اعتبار أنها حاضنة للمعاني، فلا تكاد تنحصر في بوثقة حضور المتكلم. فتتفتح على اللاممكن والآخر والمختلف. وبذلك تتجاوز الكلام المنطوق بمراحل عديدة. بخلاف ما يسوق له الدرس اللساني. "إنّ الكتابة لدى دريدا ظاهرة أوسع من أن يحيط بها مفهوم معيّن، وبالتالي تتجاوز النسق التصوري الكلاسيكي

الذي أسّس من خلاله دوسوسير لازدواجية العلامة اللسانية (دال / مدلول). فليس في الكتابة حضوراً مسبقاً للمعنى ولا إبلاغاً عنه، بل على خلاف ذلك تعني خلق دائم لهذا المعنى عبر صياغته المستمرة حين إبداعه الحروف والنقوش والرسوم على سطوح معيّنة، ليبقى بذلك قابلاً للإيصال الدائم إلى ما لا نهاية. انطلاقاً من هذا التعويم الفلسفي للغة، باعتبارها كتابة، ينتقل بنا دريدا إلى القول بوجود الاختلافات بين المعاني، والدلالات إلى حدّ تعذر المعنى داخل النص، والخطاب الواحد.²¹

واستناداً إلى المشيرات السابقة، فإنما المعاني تأتي تمهيداً لمدايل أخرى متشظية، ومنافية، ومعارضة في النتاج المكتوب، الذي ما يفتئ يقدم توجهاته حتى تفنى على آثار قراءة لاحقة، فتقلب الطاولة على مقولات النص بغية توليد أبعاد دلالية جديدة، تتعد عن كينونة اللفظ في النص ووجوده، فتتحو نحو اللاكينونة، أو اللاوجود الذي يمنحه النص من خلال إدراك ماهية التحرر، والإفلات من سلطة البناء النصي، والتوق إلى فضح المستور الذي لا يتبدى إلا بتجاوز اللحظة الزائفة ساعة تخضيب الدلالة، ونقلها من مستوى التقابلات النمطية إلى مستوى التفكيك. فتتجلى لعبة الاختلافات، ويطفو عنصر التغريب. فينضح المكتوب بالمعاني الأولانية، والثانانية، والثالثانية.. وهكذا إلى ما لا نهاية. فتبتعد عن المركز بقدر الاجتهاد في التقويض، وتشتيت نظم التقابلات. "فالمغايرة هو اللعبة المنهجية للاختلافات، وآثار الاختلافات، وللتباعد الفضائي الذي يجعل العناصر يحيل الواحد منها إلى الآخر. التباعد الفضائي هو الإنتاج السكوني والنشط في آن واحد. والمغايرة تشير إلى هذه الحيرة أمام النشاط والسكون، وهو ما يجعلها تتنصل من قصدية هذه الثنائية، وتوزيعيتها لفرغات الفاصل الذي بدونه لن تستطيع الكلمات المليئة بالمعنى أن تكون دالة، وبالتالي أن تشتغل".²² وتوضيحا لمناسبة القول، يراهن هذا الاتجاه النقدي على الكتابة باعتبارها باعنا على تعويم الدلالة. "و هذا ما يمكن أن يقال فيها بالأحرى. كتابة مغايرة، هائمة مع بدايات لم تبتدئها، ولا يمكن لأي نص أن يدعي أنه قد ابتدأها، وتائهة وراء نهايات لا تصل إليها، ولا يمكن لأي نص أن يزعم أنه انتهى إليها. وهي في هذا أقرب ما تكون إلى السعة، فالمرء كلما زادها نظراً زادته اتساعاً. ولهذا، فإنه لا يبقى أن نقول عنها سوى أنها فعالية تسير في اتجاهين: اتجاه البدايات التي تتناسل من بدايات لا تنتهى، واتجاهات النهايات التي تتوالد من نهايات لا تنتهى".²³

وهكذا يمارس القارئ تفكيكيته في النص المكتوب بناء على الأثر الذي يتحرر من قائله، فيسمح للمؤل أن يعبث بالكلمة والمنصوص. "و إذا كانت الكتابة حدثاً ينجز نفسه خرقاً وتجاوزاً، فذلك لأنها حدث خلاق يلغي نموذجها، ويجدد مولوده. والكتابة بهذا المعنى فك لمركزية التاريخ، وتشتيت لتعاقبية الأحداث. فهي تبدأ التاريخ باستمرار (وتجعله شاهداً عليها)، بحثاً عن غائب غيابه دائم، وانتظاره مستمر، وهذا أكثر ما فيها أصالة. وهي إذ تفعل كذلك، تعيش كل الأزمنة، وتستمر بعدها".²⁴

ووفق هذا التحديد تتقدم الكتابة على الكلام، من حيث كونها تحفل بطاقات دلالية غائبة، ومنتوجات متوارية تفتح على كل إمكانات التأويل والتفسير، "أمّا السبب في استحالة المعنى القارّ الثابت هذا، فإنما يعود إلى

هدم المنظور الدلالي اللساني التمثلي للعلامات اللسانية كما صاغه اللساني دوسوسير لغرض رفض أسبقية الكلام على الكتابة. ولقد جعل دريدا عكس هذا التصور ممكنًا بتأسيس فلسفة للاختلاف تسمح باعتبار اللغة من حيث هي كتابة لعبة ومتاهة أكثر منها دلالة ومعنى يتداول وينقل ويعبر عنه²⁵.

وبناء على ما تقدم تتفجر العناصر في النص بعيدا عن سلطة القول في إطار التواصل الشفهي. "إن مهمة علم الكتابة، هي خلخلة كل ما يلحق مفهوم العلمية باللاهوت الأنطولوجي، وبالمركزية العقلية والصوتية.. مطالب على الدوام بتفادي السقوط مرة أخرى في التجريبية القبل علمية. وهذا يفترض سجلا مزدوجا في الممارسة الجراماتولوجية: إذ يلزم في الآن تجاوز النزعة الوضعية والعلمية الميتافيزيقيتان، وشحذ كل ما يساهم- داخل الاشتغال العلمي الفعلي- في تحريرها من العوائق الميتافيزيقية التي تتحكم في مجال حركتها منذ بدايته"²⁶.

5. خاتمة:

جاء هذا البحث مناسبة لتوضيح المبادئ الفلسفية التي انطلقت منها الحركة التفكيكية في سعيها الدؤوب لتشريح النص من وجهة نظر نقدية تتخلص فيها من تبعات اللوغوس بكل ما يحمله من معاني التبعية، والسلطة، والتعالي، ليصبح النتاج متحررا أمام اجتهادات التفكيك، والتقويض، لتشيت المفهومات التي تقدمها اللغة في مستواها السطحي، وتجاوز الأبنية في إطارها الضيق، كما تعتمد البنيوية الفرنسية، من خلال الاعتماد على مبادئ الاختلاف والتأجيل. الحضور، والغياب، والتي شكلت حجر الأساس في القراءة والتأويل. فهذه المقولات هي من ترشد القارئ المفكك إلى ملئ البياضات، والفجوات بعيدا عن القراءات الكلاسيكية السابقة. وعليه، تتبلور هذه المرتكزات في الخطاب المكتوب، بخلاف الخطاب الشفهي الذي يمثل حضور سلطة التمرکز الصوتي، وهو ما يتعارض مع هذا الطرح النقدي، الذي يعلي من شأو الكتابة التي تمثل الأرضية الخصبة لإسقاط الإجراءات النقدية بالمفهوم التفكيكي. بيد أن هذه الإجراءات تأسست من معين فلسفي، ومنطلقات إيديولوجية أثرت هذا التوجه بما يخدم التأويل الذي ينفلت من سلطة النص.

6. الهوامش:

- ¹ يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، جسر للنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، 2015، ص174
- ² ميجان الرويلي، وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2002 ص 108
- ³ جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، ت كاظم جهاد، دار توبقال للنشر، المغرب، ط2، 2000، ص 56
- ⁴ يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، ص 177
- ⁵ جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، ص 153
- ⁶ جاك دريدا، في علم الكتابة، ت أنور مغيت، منى طلبة، المركز القومي للترجمة، مصر، ط2، 2008، ص 59
- ⁷ جميل حمداوي، استغراب ما بعد الغرب "فلسفة التفكيك كنموذج نقدي"، مجلة الاستغراب، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ع 17، ديسمبر 2019، ص 85
- ⁸ نيتشه، هذا هو الإنسان، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل، الطبعة الثانية 2006 ص 2
- ⁹ نيتشه، غسق (أفول) الأضنام، ت علي مصباح، منشورات الجمل، الطبعة الأولى 2010 ص 25

- ¹⁰ عبد الله إبراهيم، التفكيك الأصول والمقولات ، عيون المقالات، المغرب، ط1، 1990، ص 44-45
- ¹¹ جميل حمداوي، استغراب ما بعد الغرب، ص 93
- ¹² عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة عالم المعرفة، وزارة الثقافة، الكويت، 1998، ص 320
- ¹³ فارس ماجدي، ما بعد الإنسان، مدونات إيلاف، 2010/04/13، [/http://elaphblogs.com](http://elaphblogs.com)
- ¹⁴ جميل حمداوي، استغراب ما بعد الغرب، ص 98
- ¹⁵ ميجان رويلي، سعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، ص 108
- ¹⁶ منذر عياشي، الكتابة الثانية وفاتحة المتعة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998، ص 13
- ¹⁷ جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، ص 111
- ¹⁸ جونانان كلر، التفكيك، ت حسام نايل، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتابة، ع66، 2005، ص 92
- ¹⁹ عواد علي، السم والترياق: الكتابة والكلام في منظور دريدا، موقع العرب، 2019/12/01، [/https://alarab.co.uk](https://alarab.co.uk)
- ²⁰ محمد دهماني، جاك دريدا "تفكيك مركزية الصوت والحضور"، مدونة الحداثة وما بعد الحداثة، نوفمبر 2018، [/http://post2modernisme.blogspot.com](http://post2modernisme.blogspot.com)
- ²¹ الحسين أخدوش، الاختلاف والتفكيك على هوامش الكتابة والكلام (جاك دريدا أغوذجا)، 23 يونيو 2021، <https://mana.net/archives/2536>
- ²² جاك دريدا، مواقع وحوارات، ت فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1992، ص 29-30
- ²³ منذر عياشي، الكتابة الثانية وفاتحة المتعة، ص 144
- ²⁴ المرجع نفسه، ص 29
- ²⁵ الحسين أخدوش، المرجع السابق
- ²⁶ جاك دريدا، مواقع وحوارات، ص 36-37

قائمة المراجع:

1. جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، ت كاظم جهاد، دار توبقال للنشر، المغرب، ط2، 2000
2. جاك دريدا، في علم الكتابة، ت أنور مغيت، منى طلبة، المركز القومي للترجمة، مصر، ط2، 2008
3. جاك دريدا، مواقع وحوارات، ت فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1992
4. جميل حمداوي، استغراب ما بعد الغرب "فلسفة التفكيك كنموذج نقدي"، مجلة الاستغراب، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ع 17، ديسمبر 2019
5. جونانان كلر، التفكيك، ت حسام نايل، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتابة، ع66، 2005
6. عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة عالم المعرفة، وزارة الثقافة، الكويت، 1998
7. عبد الله إبراهيم، التفكيك الأصول والمقولات ، عيون المقالات، المغرب، ط1، 1990
8. منذر عياشي، الكتابة الثانية وفاتحة المتعة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998
9. ميجان الرويلي، وسعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2002
10. نيتشه، غسق (أفول) الأصنام، ت علي مصباح، منشورات الجمل، الطبعة الأولى 2010
11. نيتشه، هذا هو الإنسان، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل، الطبعة الثانية 2006
12. يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، 2015

المواقع الإلكترونية:

1. الحسين أخدوش، الاختلاف والتفكيك على هوامش الكتابة والكلام (جاك دريدا أنموذجًا)، 23 يونيو 2021، <https://mana.net/archives/2536>
2. عواد علي، السم والترياق: الكتابة والكلام في منظور دريدا، موقع العرب، 2019/12/01، [/https://alarab.co.uk](https://alarab.co.uk)
3. فارس ماجدي، ما بعد الإنسان، مدونات إيلاف، 2010/04/13، [/http://elaphblogs.com](http://elaphblogs.com)
4. محمد دهاني، جاك دريدا "تفكيك مركزية الصوت والحضور"، مدونة الحداثة وما بعد الحداثة، نوفمبر 2018، [/http://post2modernisme.blogspot.com](http://post2modernisme.blogspot.com)